يعقوب بن كلس

التاجر الذى أصبح وزيرا

لما دخل الفاطميون مصر عام ٣٥٨ هـ كانوا يحملون معهم مذهبا جديدا يختلف عما كان عليه أكثر المسلمين من أهل مصر ، فان غالبية هؤلاء كانوا يتبعون مذهبي الامامين الشافعي ومالك وقليل منهم يتبع مذهب أبي حنيفة • ولقد كانت هناك خلافات بين أصحاب هذه المذاهب الا أن الفرق بينها لم تكن جوهرية فهي جميعا من مذاهب اهل السنة والجماعة •

على حين ان الفاطميين كانوا فرقة من الشيعة عرفت باسم الفرقة الاسماعيلية نسبة للامام اسماعيل بن جعفر الصادق •

وكان الفاطميون يؤمنون بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ولكنهم الى جانب ايمانهم بالنبوة أمنوا بأن عليا بن أبي طالب هو وصى الله والوصاية عندهم مرتبة أعلى من الامامة واقل من النبوة •

وقالوا ان الائمة من بعد علي هم الحسن فالحسين فزين العابدين فمحمد الباقر فجعفر الصادق فهم على هذا النحو يتفقون مع الشيعة الاثني عشرية حتى وفاة جعفر الصادق ولكنهم افترقوا بعد ذلك : فقد قال الاسماعيليةبامامة اسماعيل بن جعفر فابنه محمد بن اسماعيل فائمة الستر وهم عبد الله بن محمد فأحمد بن عبد الله فالحسين بن أحمد •

وفقهاء الفاطميين

ثم أئمة الظهور واولهم عبيد الله بن المهـــدي مؤسس الدولـة الفاطمية ٠

وقال الفاطميون أيضا ان الامامة تنتقل من الاب الى الابن ولا تنتقل من الاخ الى أخيه بعد انتقالها من الحسن الى الحسين ٠

والامام عندهم هو حجة الله على عباده وهاديهم الى الطـــريق القويم فوجب على كل مؤمن ان يتبع ذلك الامام ٠

ذلك هو مجمل أقوالهم في الامامة وهي احدى الاسس التي قام عليها المذهب ولكن اهم أقوالهم كان هو القول بتأويل القرآن وأن له ظاهـرا وباطنا ، وكان التأويل الباطني هو العلم الذي خصوا به أنفسهم وسموا من أجله بالباطنية ٠

فقد جعلوا محمدا هو صاحب التنزيل وعلي هو صاحب التأويل ، وعلى الجملة فقد كان ظاهر القرآن عندهم هو مايعرفه العامة وينطق به علماء أهل السنة أما الباطن فهو هذه المعاني التي يستخلص الوصي والأئمة من أهل البيت دون سائر المسلمين ٠

وقد لاحظ كثير من الباحثين المحدثين أن عقائد الفاطميين هي مزيج من مذاهب وفلسفات وديانات شتى عرفت وانتشرت في الاقطار الاسلامية قبل ظهور الاسلام واستمر تاثيرها بعد انتشاره بتاثير امتزاج أصحابها مع المسلمين •

وفي وسط هذه العقائد الجديدة والتفسيرات التي لم يالفها جمهور المسلمين كان لابد ان تظهر شخصيات جديدة غريبة على المجتمع الاسلامي تتقرب الى الحكام بما يريدونه من تدعيم لآرائهم ومعتقداتهم ليظفروا بعد ذلك بالسلطة والمال •

ويعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي واحد من هؤلاء استطاع بكثير من الدهاء أن يصل الى السلطة وأن يبلغ في الوزارة شاوا بعيدا استحق به أن يلقب بالوزير الاجل ، ووصلت الينا سيرته عبر كتب التاريخ كنموذج ليهودي استطاع مرحلة بعد مرحلة أن يستخدم ذكاءه ودهاءه حتى وصل الى ماوصل اليه •

ولقد مدح الذين ترجموا لابن كلس خصائصه وكالوا له الثناء ولكنهم لم يخفوا شكوكهم حول الوسائل التي اتبعها للوصول الى السلطة أو التي لجأ اليها للتخلص من أعدائه الشخصيين وأعداء الفاطميين •

كان أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس يهوديا من أهل بغداد (ولد عام ٣١٨ هـ ـ ٩٣٠ م) وقد نشأ في بيئة اليهود هناك فامتهن التجارة مثل سائر أبناء ملته الذين كانوا يعيشون فوق الارض الاسلامية ورحل الى مدينة الرملة وأقام بها واشتغل بالتجارة فعظمت ثروته حتى صار وكيلا للتجار بالرملة (١) •

ولكنه اجتمع قبله مال عجز عن ادائه ففر الى مصر ، وهنا تبدأ اول علامات الاستفهام حول النقط الغامضة في حياة ابن كلس ، فرغم أن المقريزي أورد هذه الحقيقة الا أننا لم نعرف السبب الذي جعله يعجز عن أداء ذلك المال لاصحابه حتى اضطر الى الفرار هربا منهم •

---

(١) المقريزي : خطط المقريزي ج ٣ ص ٧

وعلى أية حال فقد وفد ابن كلس الى مصر ابـان ولاية كافـور الاخشيدي ، وهنا أورد المؤرخون عبارة تكشف عن أخلاق ابن كلس ، ومنهجه في الوصول الى السلطة ، فقد قالوا ان ابن كلس أخذ يتقرب الى كافور وكانت الوسيلة التي اتبعها في سبيل هذا التقرب عجيبة في بابها تدل على مدى قدرته في استغلال المعلومات ٠

فقد باع ابن كلس أمتعة الى كافور أحيل بثمنها على ضياع مصر فكثر لذلك تردده على ريف مصر ، فاخذ في أثناء جمعه للاموال يجمـع المعلومات الاقتصادية عن القرى وعن مساحاتها وغلاتها ومبلغ ارتفاعها أي دخلها أي أنه كان يقوم بعمليات تشبه عمليات التجسس الاقتصادي في أيامنا هذه فلما توفرت لديه هذه البيانات كان من الطبيعي أن يظهر على غيره في هذا الميدان فكان اذا سئل عن شيء منها أجاب على الفـــور وكان ذلك سببا لاعجاب كافور به ٠

واذا كان المؤرخون قد ذكروا لنا واحدة من عمليات التقرب التي استخدمها فانهم لم يتعرضوا لذكر بقية التفاصيل ، غير أنه يمكـن لنا استنتاج الخطة العامة التي كان يتبعها ابن كلس قياسا على الطريقـــة السابقة فهو يبحث عن المعلومات التي يرضى عنها كافور ليقدمها اليـه دون أن يطلب منه امتيازا مباشرا ولو قارنا أسلوبه هذا بأسلوب المتنبي الذي أخذ في مدح كافور وأمعن في ذلك ولكنه لم يخف الغاية التي يسعى اليها وهي الوصول الى السلطة ٠

فاذا أضفنا الى ذلك اعتداد المتنبي بنفسه وتعاليه على الناس بسبب قدراته الفنية واللغوية ومكانته من الشعر وانه لم يستطع اخفـــاء احتقاره لكافور ولاهل مصر عامة لانهم قبلوا أن يتولى كافور أمرهم ٠ أدركنا لماذا نجح ابن كلس في مسعاه وفشل المتنبي ٠

فان كافور قد فطن الى الصفات السابقة في المتنبي وانتهى الامر بهذا الاخير الى الفشل والهروب من مصر على حين نجح ابن كلس وتمكن من قلب كافور فما لبث أن أعلن أنه لو كان يعقوب بن كلس مسلمـا لصلح للوزارة ٠

فلما سمع ابن كلس هذا القول من كافور لم يترك الفرصة السانحة تمر دون انتهازها فاحضر من علمه شرائع الاسلام سرا لان نفسه (تاقت الى الولاية) على حد قول المقريزي ، فالمسالة اذا لم تكن اقتناعا ودراسة للاسلام خالصة لوجه الله بقدر ماكانت تمهيدا لدخول الوزارة ٠

وأن الخطة التي اتبعها ابن كلس في ذلك لتكشف لنا عن نواياه فاننا نلاحظ أنه تعلم شرائع الاسلام سرا كانما أراد أن يفاجيء الناس بتحوله الى ذلك الدين وفي تلك المفاجاة وحدها دعاية كبرى له تضاف الى رصيد الثقة فيه ، وهذا هو عين ما حدث فانه بعد أن تعلم شرائع الاسلام واتقنها نزل في شعبان عام ٣٥٦ هـ ودخل الى الجامع بمصر ـ أي مسجد عمرو بن العاص بمصر القديمة ـ وصلى صلاة الصبح وركب الى كافور ومعه محمد بن عبد الله بن الخازن في خلق كثير ٠

ولقد أراد ابن كلس بتلك المظاهرة اعلان ولاءه لكافور وبيان أنه استجاب الى رغبته بالدخول في الاسلام فكان رد الفعل الطبيعي بعد ذلك عند كافور أن ازدادت ثقته فيه فخلع عليه ونزل ابن كلس الى داره ومعه خلق كثير وركب اليه أهل الدولة يهنئونه ولم يتأخر أحد ٠

غير ان هذه المظاهرة لم ترق في عين الوزير جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابه وكان وزير كافور في ذلك الوقت ، ووجد فيها محاولة من ابن كلس للوثوب على السلطة فهو اذا منافس خطير يجيد أساليب التقرب الى الحكام فاشتد مقته له فنصب له الحبائل لاخراجه ٠

ولم تكن كراهية ابن الفرات بالامر الذي يغيب عن عين ابن كلس فعندما توفي كافور عام ٣٥٧ هـ كان أول مافعله ابن الفرات أن قبض على جميع الكتاب واصحاب الدواوين لأن هؤلاء هم أصحاب النفوذ والسلطة في البلاد ، وبحث عن ابن كلس ليذيقه نفس الكاس ، ولكن ابن كلس كان قد أحس بالخطر وادرك أن ابن الفرات لن يتركه بعد موت كافور فهرب الى المغرب ٠

فلما وصل الى هناك أخذ يتبع نفس أسلوبه السابق في الاتصال بصاحب السلطة والتقرب اليه فدخل في خدمة المعز لدين الله الفاطمي ٠

ونحن نعلم أن الفاطميين في ذلك الوقت كانوا يحاولون غزو مصر باستمرار وأن محاولات فتحها لم تتوقف منذ أن تم الامر في المغرب لعبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية ٠

وكان الفاطميون يعتمدون في محاولاتهم لفتح مصر على التجسس ومعرفة مواطن الضعف في حكم الاخشيديين كما كانوا يعتمدون أيضا على انشاء شبكات من شيعتهم في داخل مصر لمساعدتهم أثناء الغزو ، وقد سارت الى مصر حملتان قبل زمن المعز لدين الله : هما حملة حباسة بن يوسف الكتامي الذي نجح في دخول الاسكندرية ولكن جيوش العباسيين تكاثرت عليه فانهزم ٠

وشعر والي مصر أن عددا من المصريين كان قد كاتب الفاطميين وسهل لهم الغزو ، فتتبع الوالي هؤلاء وسجن بعضهم وعذب آخرين منهم بقطع أيديهم وأرجلهم (٢)

أما الحملة الثانية فقد قادها القائم بأمر الله الفاطمي عام ٣٠٧ ودخل الاسكندرية والفيوم ولكنه اضطر الى العودة الى المغرب عام ٣٠٩ هـ

ومن ثم فلم يكن غريبا أن يحاول المعز لدين الله بعد ذلك فتح مصر ، وليس غريبا أن يلجا الى أسلوب التجسس السابق فكان حضور يعقوب بن كلس الى المغرب وهو الخبير باحوال مصر العارف بامر ميزانيتها واموالها فرصة للمعز لكي يستخدمه في تسهيل مهمته في فتح مصر ٠

ولم تغب هذه الحقيقة عن ذهن مؤرخي ذلك العصر فاشاروا الى

---

(٢) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٢٨٨ والكندي : الولاة والقضاة ص ٢٧٢

ذلك بقولهم : انه يقال ان ابن كلس هو الذي أطلعه على أسرار مصر وسهل له أمر فتحها بعد أن استعصت على جيوش الفاطميين من قبل ٠

فلما فتح المعز لدين الله مصر ونقل عاصمة ملكه الى مدينة القاهرة كانت مكافاة المعز لابن كلس أن قلده الخراج وجميع وجوه الاموال والحسبة والسواحل والاعشار والجوالي والاحباس والمواريث والشرطتين وجميع مايضاف الى ذلك ومايطرا في مصروسائر الاعمال واشرك معه في ذلك كله عسلوج بن الحسين وكتب لهما سجلا بذلك قرئ في يوم الجمعة على منبر جامع أحمد بن طولون (٣)

وكان هذا الاعلان عن طريق قراءة السجل الذي هو بمثابة نشرة رسمية صادرة من ديوان الانشاء كافيا لكي يوطد سلطان ابن كلس الذي وصل الى أعلى مراتب السلطة وصارت بيده مقاليد كل الامور المالية في مصر ٠

قال المقريزي : فقبضت أيدي سائر العمال والمتضمنين وجلس يعقوب وعسلوج في دار الامارة في جامع أحمد بن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الاموال وحضر الناس للقبالات وطالب بالبقايا من الاموال مما على الناس من المالكين والمتقبلين واستقصيا في الطلب ونظرا في المظالم فتوفرت الاموال وزيد في الضياع وتزايد الناس وتكاشفوا وامتنعا أن يأخذا الا دينارا معزيا فاتضع الدينار الراضي وانحط ونقص من صرفه أكثر من ربع دينار فخسر الناس كثيرا من أموالهم في الدينار الابيض والدينار الراضي وكان صرف المعزي خمسة عشر درهما (٤)

وهكذا نرى أن أول أعمال ابن كلس عند عودته الى مصر بعد هربه هي أنه قام باجراءات اقتصادية تمكنه من تحصيل أكبر قدر من الربح فهو يعيد النداء على القبالات ، وهذه القبالات هي أن يعلن عن

---

(٣) المقريزي : الخطط جـ ٢ ص ٥

(٤) المقريزي : نفس المرجع ص ٦

تاجير الضياع فيتقدم اليها من يتقدم ويدخلون في المزايدة الى أن تنتهي بتاجيرها الى من قدم أكبر مبلغ من المال على أن تطلق يده فيما بعد في تحصيل مايراه من الضيعة ·

ولم تكن الضياع وحدها هي التي يقام عليها المزاد وانما كانت تجري بالنسبة لبعض المرافق العامة الاخرى التي سمــاها المقريزي (سائر وجوه الاموال)

أما رفض ابن كلس في ان يقبل مبالغ القبالات بالدينار الراضي او الابيض وهما الديناران السائدان في مصر قبل دخول المعز فقد كان اجراءا اقتصاديا يعود على الدولة بالربح الوفير ، اذ ان أصحاب هــذه الدنانير كانوا سوف يضطرون الى اعادة صهرها وسكها في دار السكــة بحيث تحصل الدولة على فروق أسعارها ·

واستمر الامر على ذلك حتى توفي المعز لدين الله وتولى الامر بعده العزيز بالله فوصل سلطان ابن كلس الى الاوج ، فقد وكل اليه العزيز كل أموره وجعله وزيرا له في اول المحرم عام ٣٦٧ هـ وفي رمضان عــام ٣٦٨ هـ لقبه بالوزير الاجل وأمر ألا يخاطبه أحد ولا يكاتبه الا بهــذا اللقب ·

ورسم له في محرم عام ٣٧٣ هـ أن يبدأ له في مكاتباته باسمه على عنوانات الكتب ـ أي الرسائل ـ النافذة عنه وخرج توقيـــع العزيز بذلـــك ·

وفي هذا الاجراء الاخير وحده تشريف كبير لابن كلس لاننا لــو رجعنا الى اصطلاحات المستخدمة في ديوان الانشــــاء في ذلك الوقت ، لعرفنا أن القواعد المستخدمة في كتابة العنوان على الرسائل كانت تقضي بأن يبدأ باسم الاعلى مخاطبا الادنى فاذا كانت الرســـالة صادرة عن الخليفة الفاطمي فمن المحتم أن يبدأ العنوان هكذا :

من فلان (أي الخليفة) الى فلان أي التابع او المخاطب وقد اتبع

هذا المصطلح منذ نشأة القواعد الديوانية في الكتابة في ديوان الرسائل او الانشاء وهو الديوان الرسمي للدولة الذي تصدر عنه المكاتبات .

والدليل على ذلك أن معاوية بن أبي سفيان لما أراد أن يعلن خروجه على طاعة علي بن أبي طالب ورفضه لبيعته فانه أحضر طومارا وكتب على عنوانه :

(من معاوية الى علي) .

ولم يكتب شيئا بداخله وانما أمر من بعثه به أن يرفعه فوق رأسه ليراه الناس في المدينة فلما رأوا ذلك أدركوا أن معاوية قد رفض الدخول في بيعة علي حيث بدأ بنفسه على عنوان الكتاب .

ومن هنا نرى أن الرسائل الصادرة عن العزيز بالله الى ابن كلس صارت تعنون كالتالي :

الى ابن كلس من العزيز بالله .

وبذلك نستطيع أن ندرك معنى التشريف الذي جعله العزيز على ابن كلس عندما أصدر هذا الامر .

ولقد أورد المؤرخون بعد ذلك عدة أخبار تدل كلها على المكانة التي بلغها ابن كلس في عهد العزيز منها أن اسمه كان يكتب على الطرز وأنه رتب في داره الحجاب نوبا وأجلسهم على المراتب وألبسهم الديباج وقلدهم السيوف أي أنه خلق حرسا خاصا حتى تكون له الهيبة المطلوبة ومنها أنه نصب دواوين الدولة كلها في داره فجعل ديوانا للعزيزية أي لتصريف شئون قصر العزيز بالله ـ وديوانا للجيش وديوانا للاموال وديوانا للخراج وديوانا للانشاء والسجلات وديوانا للمستغلات .

وروى ابن زولاق مؤرخ مصر ومعاصر ابن كلس : انه لما خلع على

الوزير يعقوب بن كلس وكان مكينا من العزيز وكنت حاضرا مجلسه فقلت أيها الوزير :

روى الاعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود أنه قال حدثني الصادق رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الشقي من شقي في بطن أمه ، والسعيد من سعد في بطن أمه ، وهذا علو سماوي ، فقال الوزير : ليس الامر كذلك وانما أفعالي وتوفيراتي ونيابتي ونيتي وحرصي الذي كان يعاب ويهجى ، قد مات قوم ممن كان وبقي قوم وكان هذا القول بحضرة القوم الذين حضروا قراءة السجل الذي خرج من العزيز في ذكر تشريعه قال ابن زولاق فامسكت وقلت : وفق الله الوزير وانما رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا صحيحا وقمت وخرجت وهو ينظر الي ، وحدثني أبو عبد الله الحسن بن ابراهيم الحسيني ، قال : عاتبت الوزير على ماتكلم به وقلت انما روى حديثا صحيحا بجميع طرقه وما أراد الا الخير ، فقال الوزير خفى عنك ، انما هذا مثل قول المتنبي في كافور :

ولله سر في علاك وانما كلام العدا ضرب من الهذيان

وأجمع الناس على أن ذلك هجو في كافور لانه أعلمه أنه تقدم بغير سبب ، وابن زولاق هجاني على لسان صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم فما امكنني السكوت وكان في نفسي شيء فجعلت كلامه سببا (٥)

ولو نظرنا الى الحديث السابق لتبين لنا أن ابن كلس كان على وعي تام بكل التيارات السياسية والادبية التي تحيط به في عصره والتي كانت تؤثر على الحياة في مصر ولتاكدت لدينا المقارنة التي عقدناها بين طريقة ابن كلس وبين طريقة المتنبي في الوصول الى السلطة وكيف أن ابن كلس كان يدرك قيمة كل خطوة اتخذها فيما

(٥) ياقوت : معجم الادباء حـ ٥ ص ٢٢٥

سبق كي تصل به الى القمة بل أشار الى أن الناس قد غمزوه بحرصه على المال كانما ارادوا أن يشيروا الى أصله وأن أهل ملته الاولى مشهورين بالحرص على المال وحبه فأراد ابن كلس ان يجعل من هذه الرذيلة فضيلة تؤهله لمنصب الوازرة ٠

ولم يكن ابن كلس على وعي بالتيارات السياسية الداخلية في مصر فحسب وانما كان ضليعا في السياسة الخارجية أيضا ويتجلى ذلك في النصيحة التي قدمها للعزيز بالله قبل أن يموت فقد نصحه بالا يقوم باي عمل عدائي ضد الروم طالما أنهم لم يقوموا هم أنفسهم بالهجوم كما نصحه بمهادنة الحمدانيين وأن يكتفي منهم باعلان الولاء ولكنه نصح العزيز بالله الا يترك مفرج بن الجراح زعيم عرب طيء في فلسطين يفلت منه ٠

ولقد كان ابن كلس ينفذ سياسة تثبيت ملك الفاطميين وسيطرتهم في الشمال فانه استعاد دمشق من يد ألب تكين حليف القرامطة ولكن لما صار هذا الاخير أثيرا عند الفاطميين فانه أظهر احتقارا لابن كلس فعمل الوزير الفاطمي على دس السم له وقتله (٦)

وقد أنهى ابن كلس الموقف المضطرب الذي نشأ في الشام وفلسطين على يد القسام الذي تولى بعد ألب تكين في دمشق وعلى يد أبو تغلب الحمداني الذي حضر من الجزيرة الى الشام وكذلك مفرج بن الجراح ، ثم أرغم باكجور عامل الحمدانيين على حمص أن يترك دمشق ٠

ولكن ابن كلس منع الخليفة من التوغل في شمال سوريا ٠

على أن أعجب ماقي أمر ابن كلس بعد ذلك هو مارواه المؤرخون من أنه استطاع أن يتعمق في الدين الاسلامي وفي المذهب الفاطمي بالذات مما أهله لان يعقد مجالس التاويل وذكر ياقوت أنه ألف عدة كتب هي :

---

(٦) ابن الاثير حـ ٨ ص ٢١٩

١ ـ كتاب القراءات

٢ ـ كتاب الابدان واصلاحها

٣ ـ كتاب في الفقه مما سمعه من المعز والعزيز

٤ ـ كتاب في الاديان وهو الفقه

٥ ـ مختصر الفقه المعروف بالرسالة الوزيرية

٦ ـ كتاب في آداب رسول الله (٧)

وقد ضاعت هذه الكتب جميعها ولم يبق منها الا الرسالة الوزيرية في الفقه وهو الكتاب الذي كان يقوم ابن كلس بتدريسه ـ حسبما رواه المؤرخون ـ والذي أمر الامام الظاهر الناس أن يحفظوه .

ونحن نعجب من أمر هذه التآليف اذ أن أول مايتبادر الى الذهن هو السؤال : كيف استطاع ابن كلس وهو يقوم بالاعباء الجسام التي اضطلع بها في الحكم والادارة أن يؤلف هذه المؤلفات التي تحتاج الى تفرغ كامل للدراسة والى قراءة عشرات المراجع قبل أن يتوفر عليها الا عالم وهب حياته للعلم ، فهل ياترى كان هناك من يؤلفها لحسابه ليضع عليها اسمه فيما بعد ؟

ونحن وان كنا لانملك دليلا يؤيد هذه النظرية ، الا أن التفرغ للعلم والتأليف يتعارض مع تولي الاعباء الادارية ، وليس عجيبا في ذلك العصر أن يحدث هذا الامر لانه كان من تمام السلطة أن يوصف الوزير بالعلم ، ومن ثم فقد روى لنا المؤرخون كيف كان يغدق ابن كلس على العلماء وكيف كان يجتمع في داره قوم يكتبون القرآن والحديث والفقه والادب (٨)

---

(٧) ياقوت : معجم الادباء جـ ١٠ ص ١١٨

(٨) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٣٣٤

على أن هناك نقطة غامضة في حياة ابن كلس لم يستطع المؤرخون أن يعرفوا لها سببا وتلك هي مسألة القبض عليه واعتقاله في القصر في شوال عام ٣٧٣ هـ فقد اعتقله العزيز مايقرب من ثلاثة شهـــور وولى مكانه خير ابن قاسم الى أن أطلق سراحه في المحرم عام ٣٧٤ هـ وحمل على عدة خيول تكريما له وتعظيما وقرىء سجل برده الى تدبير الدولة ووهبه خمسمائة غلام من الناشئة وألف غلام من المغاربة ملكه العزيز رقابهم ٠

وقد فسر الاستاذ كانار CANARD (٩) أسباب ذلك الاعتقال بأنها ربما كانت نتيجة لغضب العزيز عليه بعد أن دس ابن كلس السم لالب تكين أو بسبب المجاعة التي حدثت في مصر في زمنه ٠٠

وكان من الطبيعي وقد بلغت منزلة ابن كلس مابلغت أن يقصده الشعراء بالمدح طلبا للجوائز فمدحه أبو حامد أحمد بن محمد الانطاكي المعروف بابن الرقعمق وعبد الله بن أبي الجوع (١٠)

ولكنه لم يسلم أيضا من السنة الشعراء الذين هجوه فقد ذكر ابن الاثير أن الشاعر الحسين بن بشير الدمشقي هجا يعقوب بن كلس وهجا معه كاتب الانشاء أبا نصر عبد الله الحسين (١١)

وهكذا عاش ابن كلس وارتفعت منزلته من منزلة التاجر الى منزلة الوزير والعالم فكان له أنصار ومحبون كما كان له أعداء ٠

ولكن التهمة الرئيسية التي وجهت اليه والتي رددها غالبية الشعب المصري هي أنه كان يحابي النصارى واليهود ويعطي لهم امتيازات ليحصلوا عليها ٠

---

(٩) ماريوس كانار Marius Canard دائرة المعارف الاسلامية مادة « ابن كلس »

(١٠) المقريزي : خطط حـ ٢ ص ٩

(١١) ابن الاثير : تاريخ حـ ٩ ص ٤٨

وقد حزن عليه الناس حين ابتدأت علته في ٢١ شوال عام ٣٨٠ هـ ونزل اليه العزيز بالله يعوده وقال له : وددت لو أنك تباع بمالي أو تفدى بولدي فافديك ٠

ونلاحظ أن المؤرخ النصراني يحيى بن سعيد يقول بان ابن كلس كان يستحق ماأظهره العزيز من الحزن عليه في حين أن المؤرخين المسلمين لم يبد أي واحد منهم مثل هذه الملاحظة ٠

وتوفي يعقوب ابن كلس ليلة الاحد ٥ ذي الحجة عام ٣٨٠ هـ فاظهر العزيز الحزن عليه ورثاه الشعراء ٠

محمد خضر محمد خضر